فصول ملخصة من الفلسفة الألمانية

٨ – تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

للأســـتاذ خليل هنداوى

آثرنا ترجمة بعض مقاطيع لشوبنهاور ونيتشه ، لأن أسلوبهما الفلسفى تغلب عليه الصبغة الأدبية والشعرية فى كثير من خطراتهما ونظراتهما
(خ . ه)

صفحة من آثار شوبنهاور

« كيف تنعكس صورة العالم الخارجى فى عقولنا »

مقطوعة صغيرة وضعها الفيلسوف على لسان جنى يمثل لنا اللثام عن سر الأشياء

أمامى شيئان ، شيئان ثقيلان منتظمان ، ما أجمل النظر اليهما ! أحدهما إناء من حجر ثمين حُلى بعروتين من ذهب ، والآخر جسد تام الخلق والمفاصل ، هو جسد إنسان ، فبعد أن تأملت ظاهرهما كثيراً استأذنت من الجنى أن يسمح لى بتأمل باطنهما ، فأذن لى فدخلت فى الاناء ، فلا أدرى أية ميول قاتمة تتمشى فى أجزائه تحت اسم الالتحام والالتئام

أما الشىء الثانى ويا للغرابة ! أنى لى أن أحدث بما رأيت ، فأساطير الجن يمسى كل ما فيها أخاً للحقيقة ، ففى ذروته العليا ألفيتُ ما يُدعى «رأساً» مظهره الخارجى كمثل كل مظهر ، وهو كغيره من الأشياء يسبح فى الفضاء ثقيلاً . ماذا وجدت ؟ وجدت الكون نفسه مع سعة الفضاء . وجدته يحتوى على كل شىء ، فيه سعة الزمان ، وفيه يتحرك كل شىء ، وخلتُنى مع هذا التحول العجيب للأشـــياء فى الزمان والفضاء ، إننى فى ذهاب وإياب ! . . . .

– ٢ –

مقطوعة من كتابه « العالم هو إرادة وتمثيل »

قد لايدخل فى دائرة الصدق قولنا : إن الحياة ظاهرها وباطنها صباء مظلمة ، هكذا تجرى حياة أكثر الناس ، طافحة بالقلق والميول النافرة ، تمشى فى صدر الانسان حائرة مترجرجة ، وصاحبها مستسلم للأحلام بين جدرانها الأربعة حتى يقضى نحبه ، ما أشبه الناس بالساعات التى رُبطت آلاتها فمشت لاتعلم سبب مشيتها وغاية دورتها ، وفى كل مرة يولد انسان تدور الساعة لتعيد — كرة ثانية وثالثة — دورها القديم ، مرددة نفس الجملة وذات المقطع بتبدل قليل لايكاد يُحس

كل وجه بشرى ، وكل حياة بشرية حلم فانٍ مستمد من روح الطبيعة التى لانهاية لها ، ومن إرادة الحياة العنيدة الثابتة . هى كالصورة أو كالخيالة تمر سريعاً ، لاترسمها الحياة على الشاطئ اللانهائى للزمان والفضاء ، ولكن تتركها لحظة أو لحظتين تنعم بهذه الاقامة القصيرة ، ثم تمحو رسومها ، وتذهب بألوانها ، مفسحة لغيرها مكانها ؛ هذا هو الجانب الذى يبعث على التفكر والتأمل . . . يجب على ارادة الحياة القاسية أن تكافىء كل صورة من هذه الصور الصافية وكل أمنية من هذه الأمانى الذاوية ، جزاء ما تحملته من آلام عميقة وأوجاع مضنية ، وذعر متكرر من الموت الذى تفر النفوس منه اليه

إن ما يجعل النساء أكثر صبراً من الرجال على الاعتناء بشؤون أطفالنا ، هو أنهن يظللن أطفالاً ضيقات العقول ، ويلبثن — طيلة حياتهن — أطفالاً كباراً ، لا هن الى الأطفال ، ولا هن الى الرجال

لنلاحظ فتاة غانية تلعب وتمرح — سحابة نهارها — مع طفل صغير ، ترقص أمامه وتغنى معه ، ولنتمثل أى رجل شديد القسوة على إرادته يستطيع أن يصنع صنعها ، ويقوم بدورها

فى عصرنا هذا تقع عيوننا على كتاب يتخذون الكتابة مهنة ، أما قبل هذا العصر فقد كان الكتاب من ذوى الالهام ، ولم يكونوا تجاراً ، فلبثوا خالدين ، ولبثت مقالاتهم ومواعظهم خالدة كالدهر

أَطْلِقْ به ما عشتَ فكرَكَ رائداً ... تملكْه طُرًّا زاهداً متطهِّرا
واكْفُفْ يمينَك عن أمور تُقتَنَى ... فيه وأرْسِل فيه باصرةً تَرَى
وأقِمْ به حُرًّا وأطْلِقْ ما به ... يجرِى على سَنَنِ الحياةِ مُحَرَّرا
واقنَعْ بتِبْرٍ من ذُكاءٍ إذا جَرَى ... متحدِّراً فى مائه متكسِّرا
عن كلِّ تِبرِ مالكٍ أربابَهُ ... لما غدَا فى حرزِهم متحجِّرا
حُسْنُ الطبيعة خيرُ ما مُتِّعْتَهُ ... فى عالَمٍ لم آتِه متخيِّرا
وأجلُّ أجر فى الخلودِ لمؤمنٍ ... يَبْنى بتقواهُ النعيمَ الأنضرا

الاسكندرية — فتحى أبو السعود

ادوارد هرتمان

وجد « شوپنهاور » فى « هارتمان » تلميذاً أميناً لتعاليمه ، وإن اختلف مزاجهما بعض الاختلاف ، فوجه « شوپنهاور » حامد عابس ، نافر التقاطيع ، تكاد تبرز من وجهه كل علائم التشاؤم متكلمة منتقمة ، ووجه « هارتمان » هادئ تطفو عليه من التشاؤم سحابة رقيقة لا غليظة ، فهو متشائم مقبول لا يضيق به الناس ، ولا يضيق بالناس ، ولعل تعريجه الكثير على نوادى النساء مما رقق حسه ، ولطف شعوره ، ومثل له الحياة العابسة تبسم له من وراء هذه الوجوه الناعمة ، والثغور الباسمة

مال فى بدء نشأته إلى العلوم الطبيعية ، وبعد تقلب طويل دخل فى مدرسة « السلاح » فى برلين ، ثم وجد أن هذه الصناعة لم تكن لتلائم مزاجه ولاصحته فهجرها ، وهوفى إحدى رسالاته يقص علينا أن سبب تشاؤمه لا يرجع إلى ضعف فى صحته أو اعتلال فى مزاجه ، بل يرى أن روحه فى الحقيقة روح تفاؤل ورضا ، ولكن زوجه كانت تطفو عليها سحابة من التشاؤم والكآبة الخُرساء ، والعناد فى الرأى الذى تذهب اليه

كان « هارتمان » فى الثانية والعشرين من عمره حين أخذ يكتب كتابه « فلسفة اللاشعور » la Philosophie de l'inconscient. ولبث فى تصنيفه خمس سنين . ما هو هذا اللاشعور ؟ إنه الارادة عند شوپنهاور تظهر كمادة شاملة عامة ، أو هى ذات فكرة « هيجل » بعد خروجها من ـ مصنع شوپنهاور ـ مُبهمة مغمضة لا تُدرك . ولايرى القارىء فى هذا الكتاب مذهباً جديداً لأنه تغير للمذاهب المتقدمة ، ولا بحثاً ناضجاً لأنه عصارة شباب متوقد روحاً وعاطفة . وإنما هو شعلة أضرمتها فتوة تنطوى على علم غزير ، فتهوى نفسك أن تتبع آثار المؤلف فى ما يعطيك ويلهمك ، ولا سيما فى تحدثه عن « اللاشعور » فى مقامات العقل الانسانى وحالاته النفسية ، وفى غرائز الحيوان ، فى اللغات ومسائل الدين ، وفى كل حنايا التاريخ وما احتواه ، حتى يأتيك بالصورة الأخيرة التى يرى فيها الانسانية وقد بلغت نهايتها متعبة من إرادتها ، ومن تفكيرها ، ومن حياتها ، وهى توّاقة مشتاقة الى العدم ؛ حيث كانت ثم انتشلت منه بغير إرادتها . وهذه صورة فيها شىء من السمو الشعرى بشرط أن يتلقاها الناظر كحلم خالص قذفت به مخيلة خالية . . . .

وقد أحدث كتابه هذا دوياً بعيداً فى العالم الفلسفى والعالم الأدبى ، لا لأنه زاد ـ فى ألمانيا ـ أنصار الفكرة التشاؤمية ، بل لأن هارتمان وشوپنهاور كانا أول من صرفا الذهن الألمانى الى مواجهة المسائل الفكرية بالفكر ، وأعادا وصل الحلقتين اللتين قطع بينهما مذهب المثل الأعلى الذى سيطر على العقل الألمانى طيلة عصر طويل

إن فى كل ألمانى مثقف نزعة خاصة به تتمشى فى ثنايا روحه ، تريد أن تتحرك وأن تنمو بذاتها ؛ ترى الفرنسى يجنح الى الفلسفة لتساعده على تفهم الحياة ، وبعبارة أجلى لتعلمه كيف يعيش ؛ الألمانى ـ على الأغلب يرى فلسفته حلماً ، ولكنه يعتقد أنه سيستيقظ من حُلمه هذا ، وأنه إذا أراد أن يعمل ، فعليه أن يفتح عينيه . . . وكل ألمانى يتردد فى حلمه أو يقظته ـ الى المدينة الكاملة ـ التى تحدث عنها شوپنهاور ، المدينة المشيدة على ذرى الغمام ، لأن الألمانى واسع الحلم خصب الخيال ، وهناك يُغادر تصوفه الغريزى المبهم ، ويؤوب من تلك المدينة الى الحياة الحقيقية ، وهو أشد حماسة وأكثر تأهباً للمعركة التى يشنها فى سبيل الحياة

على أن هذا المذهب ، (مذهب التشاؤم) قد لقى خصوماً ألداء ممن قارعوه الحجة بالحجة ، ونازلوه نزالاً عنيفاً ؛ وحُق للفلسفة كلها أن تجمع أحزابها وشيعها على محاربة « مبدأ خطر » إذا فشا هدم كل أمل فى البشرية ، وقضى على كل جهادها الطويل . وقد انضوى « الماديون » تحت لواء المعارضة ، وكان أشهرهم « أوجين دوهريك » الذى وصل الى هذه الفكرة السامية : « بأن الحياة بمجموعها جميلة ، فى أفراحها وفى أتراحها ، على أن نتناولها كما هى بمُجرها وبحرها ، لانحاول تغيير سنتها ، ولا تبديل طبيعتها ، ولا نطلب اليها أن تمنحنا مالا تقدر على منحه ، لأنها سائرة إلى غايتها التى لا تبالى بغايتنا ، وان فى تمردنا على نُظمها شقاءنا ، وفى رضانا عن مذهبها نعيمنا »

« يتبع »

خليل هنداوى